أضحيات بشرية

بعد أن انتهى من خطبة العيد، قال خالد القسري، عامل هشام بن عبدالملك على العراق يحث المصلّين: ليذهب كل منكم إلى داره، وليضحّ أضحيته، تقبّل الله منا ومنكم، أما أنا فسأضحّي بالجعد بن درهم؛ فإنه يقول: ما كلم الله موسى تكليما ولا اتخذ ابراهيم خليلا، ثم هبط من المنبر وذبح الجعد وسط الجامع أمام ذهول المصلّين، وكان الجعد بن درهم وجهاً بارزاً في فرقة المعتزلة التي تأسست على يد واصل بن عطا وعمرو بن عبيد، وحملت هذا الاسم من ملاحظة الحسن البصري على انسحاب تلميذه النابه من حلقة الدرس اليومي الذي يلقيه وتكوين حلقة أخرى يديرها بنفسه في الجامع ذاته، فقد قال البصري محدثاً مريديه اعتزلنا واصل.. وفي ذلك الدرس كان قد أثير نقاش حول مرتكب الكبيرة سواء الشرك بالله أمؤمن أم كافر..؟! وانقسم الدارسون بين قائل بإيمانه وجازم بكفره؛ إلا واصل بن عطا وضعه في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان وعدّه فاسقاً. ولم يستحسن البصري الرأي، فخرج الشاب ذو العشرين عاماً مستقلاً عن الفقيه الكبير ومتمرداً عليه ثم ينشئ مع زميله ابن الثامنة عشرة الفرقة التي ستعلي من شأن العقل في تاريخ الفكر الإسلامي، وغدت المنزلة بين المنزلتين واحدة من المبادئ الخمسة للمعتزلة تتوسط العدل، والتوحيد، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عُرفت المعتزلة بالقدرية، مقابلة الجبرية التي يعتقد بها أغلب فقهاء المسلمين في ذلك الوقت وربما إلى هذا اليوم.. ووفق هذا المذهب فإن الإنسان يتميّز بالقدرة والحرية في الاختيار، فهو صانع أفعاله لا مكرهاً عليها مثلما يزعم الجبريون.. ذلك أن حرية الاختيار يتفق مع المبدأ الأول من مبادئهم وهو العدل الذي يتصف به الخالق، فالله ميّز الإنسان بالعقل وأعطاه حق الاختيار بين الخير والشر، ولو أنه جعله مسيّراً مسوقاً إلى ما يفعل ما أثابه حين يحسن أو عاقبه عندما يسيء.

وعرف المعتزلة بأنهم أهل الكلام لما تميّزوا به من براعة وإلمام بالمنطق ومن تضلع بالفلسفة وإحاطتهم بشتى مدارسها ومختلف مذاهبها، وهم كانوا أصحاب همّة فكرية ومثابرة على العلم، استقر في قلوبهم اليقين بعقم مجادلة غير المسلمين بأسانيد من الكتاب والسنة ماداموا لا يؤمنون بها، وإن من حسن التدبير اختراق عقولهم والانقضاض على مسلماتهم بالأسلحة نفسها التي يتصدّون بها للإسلام؛ لذلك غاصوا في بحار علوم الإغريق والرومان، وسبحوا في أنهار مأثورات أهل الصين والهند وفارس حتى أوتوا من المعارف شيئاً كثيراً؛ فأثّروا في الفكر الإسلامي وأثروه وخصّبوا تربة الحضارة وأغنوها، وارتادوا من هذا الباب الفسيح لعلوم من سبقهم طرقاً غير تقليدية في فهم الدين وفي معرفة الذات الإلهية، ونّزهوا الله من الصفات التي قال بها المشبهة من فقهاء الحديث والتأويل ومنها على سبيل المثال «أن يد الله أو ساقه مجسمة كالأيدي والسيقان التي نعرفها» من قوله عز وجل "يد الله فوق أيديهم" و"يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود" أو أن الناس سيرون وجه الله مجسّداً في صورة بعينها يوم القيامة، أو أنه كلم موسى في الجبل بصوت مسموع أو ما شابه ذلك من صفات تنزّه عنها الله وتعالى علواً كبيراً؛ وإنما يد الله قدرته ليس كمثله شيء ولا تدركه الأبصار.

كذلك كان إيمان الجعد بن درهم ومن أجله ذبحه خالد القسري وجعله أضحيته وقربانه، سوف يسجل التاريخ الإسلامي مفارقة مذهلة في التعامل مع حرية الفكر والاختيار؛ ذلك أن المعتزلة الذين عرفوا أنصاراً للحرية مؤمنين بها أشد الإيمان مارسوا في جيلهم الثالث طغياناً على العقل في الواقعة المعروفة بمحنة خلق القرآن وضحيتها الممتحن أحمد بن حنبل، وكان الخليفة العباسي المأمون صاحب عقل منفتح تشرّب فكر المعتزلة صبياً وشاباً حتى ارتوى، غير أنه لم يكتف؛ بل زاد واستزاد وظل يطلب العلم في رجولته والكهولة.. وفي ولايته لم يخف معتقده الفكري بقدر ما أفصح وأبان، فأسند الوزارة لواحد من أفذاذ المعتزلة (أحمد بن داود) وجعل من عقيدتهم أيديولوجيا الدولة الرسمية وأولى الفكر والثقافة أعظم الاهتمام، فأنشأ بيت الحكمة، وحشد إليها الحاذقين والعارفين بالعلوم الوضعية والفلسفية، فأكرمهم وأجزل البذل واهتم بصورة خاصة بالترجمة حتى ازدهرت عاصمة الخلافة في عهده ازدهاراً غير مسبوق وغير متبوع مع استثناء الأندلس بحضارتها الزاهرة ومجدها المشرق.

حضرتني واقعة خالد القسري والجعد بن درهم في مشهد الأشلاء والجثث المتفحمة خلال أيام عيد الأضحى؛ فكان هذا الحديث.. والحقيقة أن تاريخ المسلمين حافل بتقديم البشر أضاحي في الأيام الحُرم رغم أن القتل هو القتل في أي يوم وفي أي مكان، وأيّاً كان دين الضحية أو إيمانه؛ لأن النفس محرمة على إطلاقها إلا من اعتدى؛ ذلك شرع الله في الديانات كلها وشرع البشر في القوانين والأعراف على اختلافها؛ لكن القتل في يوم التضحية يوحي بالتساوي بين الإنسان والحيوان قيمةً ودرجة، وقد تملكت العرب غضبة حارقة (عبّر عنها البعض وكتمها آخرون) من اختيار عيد الأضحى لإعدام الرئيس العراقي صدام حسين؛ إذ شعروا أن الأمريكان قصدوا إهانتهم لما ذبحوا رئيساً منهم ساعة يذبحون الخراف.

وللذين لا يتذكرون، فقد اغتيل رئيس مصر الأسبق أنور السادات في يوم من أيام عيد الأضحى، وكان التخلص منه يرضي الولايات المتحدة ويلبّي رغبة عندها إن لم يكن بإشارة منها، لقد كان يرضيها لأنه أحرق مراكبه ولم يعد يقدر على العودة إلى العرب ليتولّى دوراً يخدم سياساتها؛ وإذ تم بإشارة منها فلا يعني بالقطع أن من نفذوا الاغتيال كانوا موظفين في أحد أجهزة استخباراتها، ففي حالات عديدة يكفي أن يخترق جهاز المخابرات تنظيماً معيناً بأحد قياداته الفاعلين والمؤثرين، ومن خلاله يتم توجيه سياسات وقرارات التنظيم للأغراض التي ينشط من أجلها هذا الجهاز، ولم تزل من الأشياء المثيرة للظنون أن خالد الاسلامبولي ورفاقه وفّروا حياة نائب الرئيس حسني مبارك، وكان في متناولهم وليس في هذا ما يفيد أنه عميل أمريكي؛ لكن الغاية أنهم يعرفون أبعاد شخصيته ويثقون بأنه لا يميل إلى المغامرة بحيث يتحداهم وينقلب عليهم؛ وإنه لأمر ذو دلالة أن قتلة أنور السادات ينتمون إلى الجماعة الإسلامية الفرع الأكثر عنفاً من حركة الإخوان، كما أنه أمر ذو مغزى أن يُقتل صاحب قرار أكتوبر في السادس من اكتوبر بما تعنيه المناسبة لإسرائيل وما تمثله لمصر وللعرب.

› حسن العديني

ولأني قد أتيت على ذكر أحمد بن حنبل فعليّ أن أقول إن الذين عاقبوه على تمسُّكه برأيه وإصراره اكتفوا بمصادرة حريته ولم يسلبوا حياته؛ بينما تلامذته الآن يكفّرون كل مسلم، ويهدرون كل حياة.

وقد رأيناهم يقدّمون البشر أضحيات في هذا العيد، وشاهدنا الدماء فوارة في حضرموت وأبين والجثث محترقة في العراق ومصر، وفي الشام وتونس، هكذا أجازوا القتل حتى في حق الذين لم ينكروا أن الله قد كلم موسى تكليما، واتخذ ابراهيم خليلا.

ذلك أدعى لرفع الدعوة إلى احترام العقل، والانتصار للحرية؛ لكي لا يُباح دم الجعد بن درهم اليوم وغداً وحتى قيام الساعة..!!.

لم يكن المأمون مولعاً بالعلم شغوفاً، محباً للحق وعاشقاً للحقيقة، ولم يكن عصره عصر انفتاح فكري فقط؛ بل كان عصر تسامح ديني؛ إذ ولّى على دار الحكمة اليهودي (اسحاق بن حنين) وجعل طبيبه الخاص رجلاً مسيحياً؛ ومع ذلك بقيت محنة أحمد بن حنبل النقطة السوداء في الراية الزاهية والناصعة.

أحمد بن حنبل هو مؤسس المدرسة السلفية، ومن عباءة تزمته خرج الآباء الفقهيون لجميع التيارات الأصولية المتطرّفة أحمد بن تيمية وابن القيم الجوزية ومحمد عبدالوهاب، وزاد الخلف فألقوا ستارة الكفر على المخالفين لما يعتقدون أنها سيرة السلف الصالح، ثم أعطوا أنفسهم حق قتل هؤلاء الكفار

ليس كل معمم يصلح للسياسة ..!!

علي الذرحاني

يوجد بين أوساط المتدينين من تراه يسابق في اكتساب الخيرات ويوجد فيهم أيضاً المقتصد والظالم لنفسه والمعتدل والمتطرف والمتشدد والمتحجر وهناك من يدعو إلى الله بنية خالصة وعلى بصيرة من علم ولكنه ينفر من السياسة والعمل السياسي ولا يعمل على توظيف الدين لاغراض سياسية ويكره الانتساب إلى السياسة او مزاولتها ويرى أن من السياسة الحكيمة ترك السياسة والعمل السياسي هذا المتدين الواقعي قد عرف قدر نفسه واحترم التخصصات والمجالات الاخرى المتعلقة بأمور الحياة والمعاش كالسياسة المرتبطة بين الراعي والرعية والداخل والخارج نذكر هنا نموذجاً أو نموذجين أو ثلاثة من هؤلاء المتدينين الواقعيين الذين لا يخلطون بين العمل الديني والعمل السياسي الدكتور ناجح إبراهيم وهو قيادي سابق في الجماعات الاسلامية في مصر والذي صرح في مداخلة له بأن الداعية من الأفضل له ألا يعمل في السياسة، فالداعي لربه ولكل الناس وليس لحزبه أو مصلحته أو منصبه، وكلما اراد أهل الدعوة ان يجتمع لهم الحكم مع الدعوة ضاع عليهم الاثنان معاً.

وأضاف قائلاً: لقد وظفت نفسي طوال حياتي لوظيفة واحدة هي الاحياء عن طريق احياء النفس كطبيب والاحياء الدعوي بالدعوة إلى الله ولا أريد ان اشغل نفسي بأمور اخرى سوى هذه الوظيفة، وقد رفضت قبول عضوية المجلس القومي لحقوق الإنسان لأني أرفض العمل في السياسة.

انتهى كلام د. ناجح.

من المعروف لدى أهل السياسة انها فن الممكن وان ما يقوله السياسي اليوم أو ما يتبناه من موقف يتراجع عنه بعد ساعات أو ايام قلائل ليتبنى موقفاً آخر قد يكون معاكساً تماماً لما تبناه بالأمس، ومن الطبيعي جداً ان يجد السياسي المبررات لمواقفه المختلفة والمتناقضة ويتحجج بالظروف الموضوعية وحركة الشارع العامة والخاصة ومن هنا نبدأ مع الرجل المعمم الذي يحمل صنعة رجل الدين ونسأله: هل تستطيع القفز على الحقائق الشرعية والثوابت الايمانية لتتحول إلى رجل سياسة يقول اليوم كلاماً ويلغيه اليوم الثاني استجابة لرغبة الشارع حتى ولو كان مخالفاً لشرع الله؟! ولم أنت مستعد دوماً أيها الرجل صاحب العمامة ان تزج نفسك في مركب ليس مركبك وتلبس ثوباً لا يليق بك وبعلمك ..!! فإذا اردت السياسة فاخلع العمامة والعمل ما تشاء وإذا أردت الشرع والدين فعليك التزام مبادئ الدين فلا تتفق هذه مع الأهواء والميول والنوازع وأعلم ان القيادة الدينية شيء والقيادة السياسية شيء آخر والدليل نجده في الآيتين القرآنيتين (246) و(247) من سورة البقرة وكيف ان الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ألم تنته إلى علمك يا محمد قصة هؤلاء من بني إسرائيل من بعد موسى، وفي عصر داود عليه السلام. إذ قالوا لنبيهم. شمويل. اقم علينا أميراً أو حاكماً يجمع شملنا، ويوحد كلمتنا، ويقودنا تحت لوائه إعلاء لكلمة الله واسترداداً لعزتنا واستقلالنا.

فهل ترون كيف ان النبي شمويل في الآيات السابقة قد استجاب لدعوة قومه في الدعاء إلى الله بارسال ملك يقودهم في امور حياتهم ويسوس الحرب والسلم مع وجود النبي شمويل بينهم كمرجع للسلطة الدينية لكنه يساعد الملك في مهمته ولا يكون البديل عنه في اتخاذ القرارات اللازمة للحرب أو السلم .. الكلام الآنف الذكر مقتبس من مقال مشابه لمقالنا هذا والكاتب يدعى نصر العرب.

بقي لنا تعريف القارئ بجزء من حوار مع د. معتز الخطيب وهو باحث إسلامي معتدل من القطر العربي السوري وقد سأله محاوره السؤال التالي: هل يصلح رجل الدين كسياسي؟!

ومتى يحق له التدخل في السياسة ومتى لا يحق له .. ؟! أجاب الدكتور معتز: أولاً من المهم عدم استعمال تعبير (رجل الدين) لانه مصطلح مرتبط بالفكر المسيحي ويترتب عليه بعض التصورات والمفاهيم التي لا تنطبق على عالم الدين المسلم أو على (الفقيه) و(الداعية) و(المفكر الإسلامي) ومن المؤسف ان هذه المصطلحات التي ميزت بينها هنا اختلطت في الأوساط الدينية الإسلامية عامة وان الناس لا تميز بين شيخ وشيخ وان بعض المشايخ أنفسهم لا يلتزمون بحدود علمهم وأدوارهم ولكن هذا التمييز واضح عبر التاريخ ولدى العلماء السابقين فقد كان هناك تمييز بين الفقيه والأصولي والمحدث والواعظ والمفسر ومنهم من كان يجمع بين كل هذا وهم قلة ومنهم لا يحسن كل هذا وكثير من مشايخ اليوم هم دعاة ووعاظ ومرشدون وخطباء مساجد وليسوا فقهاء بل ان آفتنا اليوم هي قلة الفقه وفقر الفكر بين المشتغلين في الوسط الديني عامة. كما ان تكوينهم العلمي لا يؤهلهم للوصول إلى درجة الفقهاء المجتهدين القدامى أو المفتين بتعريف الفقهاء السابقين للفقيه والمفتي ..!! وبناءً على ما سبق فإن عامة المشايخ لا ينبغي لهم ان ينخرطوا في العمل السياسي لانهم لا يحسنونه ولأنه يتطلب تأهيلاً خاصاً وقد نبهنا القرآن الكريم إلى مبدأ عام في قوله تعالى: (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)، وأهل الذكر هنا هم أهل الاختصاص في كل فن وعلم السياسة فن ولها رجالها والعمل السياسي فن آخر عن فن الدعوة إلى الله فليس كل من له علم بالسياسة مؤهلاً لممارستها أو ممارسة العمل السياسي كما ان الخلط بين الدعوة والعمل السياسي أمر شديد الخطورة على الدعوة والسياسة معاً ومضر بكليهما معاً لأن آليات وأخلاقيات العمل الدعوي تختلف كلياً عن آليات العمل السياسي واشتغال الدعاة في السياسة له ضرر على مستقبل التدين لأن العمل الدعوي ينطلق من مسائل دينية ومسلمات شرعية لا يبتغي بها الداعية إلا وجه الله ولايسأل عليها أجراً أما العمل السياسي فمبني على التنافس والتنازع وتزكية النفس والشهادة لها والمبالغة في ذلك ومبني على مراعاة رأي الجمهور ورغباته وعلى المصالح الحزبية والعامة ويتطلب مؤهلات وتكويناً خاصاً في إدارك مسائل الشأن العام وإدارته والعمل الحزبي وعقد التحالفات مع الاحزاب المختلفة والمعارضة وكل هذا يجعل الداعية السياسي طرفاً وخصماً للأطراف الاخرى لأنه يتنافس معها ويتنازع معها على المناصب والنفوذ وهذه تفقده دوره العام الذي يفترض فيه انه يخاطب عامة الناس وليس انصاره فقط إلى غير ذلك مما لا يحتمل التوسع فيه هنا .. ان الداعية إذا رغب في السياسة فينبغي عليه ألا يكون طرفاً أو خصماً للأطراف المنافسة له وإلا بطلت دعوته كداعية ولن يسمعه أحد وهو يدعو إلى الله.

وعليه ان يتذكر بأنه من أهل الذكر في الدعوة إلى الله وتعريف الناس بأمور دينهم ومعاونة السياسي في هذا الشأن دون تدخل وان السياسي هو من أهل الذكر في امور السياسة والمعاش وأمور الدنيا ويستأنس بأهل الذكر في الاخلاق والآداب والخصال الفاضلة والقيم والمبادئ الإنسانية السامية والمشتركة بين الشعوب والأمم على اختلاف ألوانها واجناسها ومعتقداتها.